

الفصل الثالث

طويوطومى هيديوشى وتوحيد البلاد

١- اجتماع التوريث :

بعد مقتل ميتسو هيدي بأربعة عشر يوما فى السابع والعشرين من شهر يونيو ١٥٨٢م عقد اثنين من أولاد أودا نوبونا ومعهم أهم قواد عشيرة أودا اجتماعا فى قلعة كيوسو فى مقاطعة أوارى مسقط رأس نوبونا، وذلك لتحديد من يخلف نوبونا فى رئاسة عشيرته .

كان الابن الأكبر لنوبونا هو نوبوتادا Nobutada (١٥٥٧م - ١٥٨٢م) قد توفى فى قلعة نيجوجو إثر حادثة هونونوجى أى أنه توفى مع والده فى نفس التوقيت، وبقي الابن الثانى نوبوكاتسو والثالث نوبوتاكا اللذين حضرا الاجتماع، وأحضر الزعيم هيديوشى معه فى الاجتماع ابن أخيهما الكبير نوبوتاكا الذى لم يتعد السنة من عمره ملوحا بأن هذا الرضيع يجب أن يكون وريث نوبونا فى رئاسة العشيرة، وقصد من ذلك مواجهة ومعارضة القائد شيباتا كاتسو إيه Shibata Katsuei (١٥٢٢م - ١٥٨٣م) وهو كذلك كان من أهم قواد نوبونا وزوج أخته التى تدعى أويتشى نوكاتا Oichi Nokata فى نفس الوقت. وكان كاتسو إيه قد تحالف مع الابن الثالث نوبوتاكا من أجل إقصاء طويوطومى هيديوشى إلا أنه سوف يهزم أمام جيش هيديوشى كما سوف نذكر فيما بعد وحضر مع السالف ذكرهم المحارب نيو ناجاهيدي Niwa Nagahide

(١٥٣٥ - ١٥٨٥م) المتحالف مع هيدىوشى ، والمحارب إيكيدا نوبوتيرو Ikeda Nobuteru (١٥٣٦ - ١٥٨٤م).

وفى هذا الاجتماع حاول كل من الأخوين إثبات أنه الأحق بخلافة والده على زعامة عشيرة أودا. وقام كاتسو إيه بتأييد الأخ الأصغر نوبوتاكا ولكن لأن ذلك فى العرف اليابانى غير منطقى فقد قدم هيدىوشى حفيد نوبوناجا الذى كان يدعى سان بوشى Sanboshi على أنه الوريث الشرعى لنوبوناجا على الرغم من أنه كان لا يزال رضيعا كما ذكرنا آنفًا، وبالفعل نجح فى ذلك مؤقتا حتى استطاع تقلد مقاليد الأمور بأكملها بعد القضاء على كل منافسيه ، وفى إبريل ١٥٨٣م تقابل جيشا هيدىوشى وشيبياتا كاتسو إيه فى موقعة شيزوجاتاكى الواقعة فى منطقة أومى Oumi (محافظة شيجا) فكان الانتصار الساحق لحليف هيدىوشى وأبلى فى هذه الموقعة جنود هيدىوشى بلاءً حسنا وعلى الأخص اشتهر سبعة من جنود الرماة، والذين أصبحوا فيما بعد من أهم أتباع هيدىوشى أثناء فترة حكمه التى يطلق عليها عصر موموياما Momoyama نسبة إلى المكان الذى كان يحكم منه هذا القائد.

وعلى إثر هذه الموقعة قام شيبانا كاتسو إيه بإشعال النيران فى قلعته فى إيتشى منتحرا على طريقة شق البطن ومعه زوجته إيتشى نوكاتا أخت أودا نوباناجا، وكانت هذه النهاية المأساوية معتادة للمحاربين عند انهزامهم، وهكذا سقط ثانى أعداء هيدىوشى بعد أكييتشى ميتسو هيدى، وكان من أهم نتائج موقعة شيزوجاتاكى Shizugatake أن فتح الطريق أمام هيدىوشى لإكمال عملية التوحيد.

وكذلك فإن هيدىوشى استطاع إخضاع منطقة هوكوريكو أى محافظات توياما وإشيكاوا وفكوى ونيجاتا وكانت الخطوة التالية هى

إنشاء هيدوشى قلعة أوساكا وتعتبر أوساكا موقعا هاما جدا بالنسبة لكيوطو حيث تتحكم فى الطريقين البرى والبحرى نحوها، وقد وجد هيدوشى أن أوساكا يجب أن تكون نقطة الانطلاق نحو عملية التوحيد، وأن يكون بها مقر الحاكم .

والموقع التى تحتله قلعة أوساكا وملحقاتها تبلغ مساحته حوالى ١٣ كيلو مترا مربعا. وقد بدأ هيدوشى عملية الإنشاء فى الأول من سبتمبر عام ١٥٨٣م واكتمل بناؤها تقريبا فى عام ١٥٨٥م. ومن أجل إنشاء هذه القلعة العظيمة فقد جمع هيدوشى عشرات الآلاف من الرجال من أكثر من ثلاثين مقاطعة. وقد حُملت أحجار حوائط القلعة من جزيرة تسمى شودوشىما على بعد حوالى ٢٠٠ كيلو متر من أوساكا. وكانت مهمة صعبة للغاية خاصة إذا عرفنا أن حجم بعض أحجارها يفوق حجم أحجار أهرامات الجيزة.

وقد تكون البرج الرئيسى للقلعة من خمسة طوابق تضم تسعة أدوار، ويروى المبشرون الغربيون أنهم كانوا يشاهدون حوالى ألف مركب محملة بالأحجار تدخل كل يوم ميناء أوساكا من أجل بناء قلعتها العظيمة. ويتحدثون أيضا عن انبهارهم بفخامة الحجرات الداخلية ورفاهيتها. فقد كانت الحجرة التى يقام بها طقوس الشاى اليابانى التقليدية ذات حوائط مجلدة بصفائح الذهب. وكانت الأدوات والأوانى المستخدمة فى هذه الطقوس أيضا من الذهب الخالص، وإلى جانب ذلك فقد كانت هذه الحجرة ممكنة الفك والتركيب ولذلك يمكن نقلها إلى أى مكان آخر. وقد تم تجديد وإعادة بناء قلعة أوساكا عدة مرات، إلا أن الأحجار السفلى للقلعة تشهد بضخامتها على مدى قوة وفاعلية اليابانيين آنذاك.

كان فى انتظار هيدىوشى حروب ومواقع كثيرة عليه أن يخوضها من أجل إكمال مشوار توحيد البلاد الطويل. فمنذ مارس ١٥٨٤م ولدة ستة أشهر تالية قام هيدىوشى بحرب طويلة النفس ضد كل من أودا نوبوكاتسو (الابن الثانى لنوبوناغا) وطوكوجاوا إيباسو وذلك فى منطقتى كوماكى وناجاكوتى الواقعتين فى مقاطعة أوارى (محافظة إيتشى Aichiken). وظللت الجيوش المتحاربة تتربص بعضها البعض حتى عقد هيدىوشى صلحا مع نوبوكاتسو فى نوفمبر من نفس العام، وبعدها بشهر واحد عقد صلحا آخر مع إيباسو، ولكن فيما بعد غير هيدىوشى خطته من أجل إخضاع المقاطعات الشرقية وهى إيدو والمقاطعات التى حولها.

وفى عام ١٥٨٥م استطاع طويوطومى هيدىوشى أن يقهر ثورتى رهبان معبد نيجرو (Negoroshu) وساىكا (Saika) فى مقاطعة كيشو واللذين كانا يقفان إلى جانب طوكوجاوا إيباسو ضده أثناء حربى كوماكى وناجاكوتى. ثم استطاع هيدىوشى بعد ذلك إخضاع كل جزيرة شيكوكو بعد إسقاطه لحكم المحارب تشوصو كابى موطو تشكا (Cho So Kabe Motochika) (١٥٣٩م - ١٥٩٩م) والذى استطاع أن يوحد كل هذه الجزيرة تحت إمرته. ولكن الإنجاز الأكبر الذى حققه هيدىوشى فى ذلك العام (١٥٨٥م) لم يكن إنجازاً حربيّاً بل سياسيّاً، وهو حصوله على تفويض الإمبراطور له بحق حكم كل أنحاء اليابان بالنيابة عنه عندما منحه لقب كانباكوكو (Kanpaku) وهى وظيفة تعنى أنه بمثابة مساعد الإمبراطور الأول، وكانت تلك خطوة هامة جداً على طريق التوحيد.

إذن فقد وصل هيدىوشى إلى أرفع المناصب فى اليابان آنذاك - بعد الإمبراطور بالطبع - على الرغم من أصله المتواضع جداً، فقد جاء من

أسرة ريفية بسيطة، واستطاع عبر جهده المتواصل ومهاراته الذهنية والعسكرية أن يقنع نوبوناغا بها ويتقرب منه ليصبح بعد سنوات قليلة من مقتل سيده الحاكم الفعلى للبلاد. ولذلك كثيراً ما يضرب المثل بهيديوشى فى التحدى والكفاح والعصامية.

ثم لم يلبث هيديوشى حتى أصدر قانون السلام الشامل (Sobujirei) فى نفس العام (١٥٨٥م). وبمقتضى هذا القانون أو بالأحرى فرمان أمر هيديوشى كل الدايميوات المتحاربين بإقرار السلام بينهم، كذلك أعطى هذا فرمان هيديوشى حق تحديد نطاق حكم كل دايميو والمقاطعة التى يمكن أن يحكمها. كذلك وتبعاً لهذا فرمان تقرر معاقبة كل الأطراف المتحاربة أو المتشاجرة من الدايميوات بصرف النظر عن الظالم أو المظلوم أو المخطئ أو المصيب. ولذلك فقد تم تحريم أية نوع من الحروب أو حتى الصراعات الشخصية فى كل طبقات المجتمع اليابانى من أعلى مراتبها متمثلة فى الدايميوات وحتى طبقة الفلاحين البسطاء. وقد أطلق على هذا القانون أيضاً لقب «فرمان طويوطومى للسلام» وقد أعطى هذا القانون إشارة واضحة لنهاية عصر الحروب فى اليابان. بل لقد أصبح بمثابة الأساس القانونى الذى يعتمد عليه هيديوشى من أجل إخضاع أى مكان فى اليابان. ولذلك فهو يعتبر خطوة هامة أخرى فى طريق توحيد البلاد. ولكن شيمازو يوشى هيسا Shimazu Yoshihisa (١٥٣٣م - ١٦١١) الذى كان يضع معظم جزيرة كيوشو تحت إمرته خالف هذا فرمان فقام فى إبريل ١٥٨٦م بالهجوم على مقاطعة بونجو (محافظة أويتا الحالية) فاستنجد حاكمها أوتومو صورين بهيديوشى، فقرر هيديوشى إخضاع كيوشو وجهاز جيشا عظيما خرج به من أوساكا فى العام التالى (١٥٨٧م)،

وحمل معه كميات كبيرة من الذهب والفضة ليشتري بهما الإمدادات والأسلحة حتى لا يحملها من أوساكا، لأن المسافة من أوساكا حتى كيوشو تزيد على ألف كيلو متر. بل إنه اصطحب معه زوجته وأولاده. وعندما وصل إلى ياماجوتشي - القريبة نسبياً من كيوشو - كون هناك جيشاً آخر مساعداً يزيد عدده على مائتي ألف جندي، وبدا أن هيديوشي بهذا الجيش الرهيب لا يقصد إخضاع كيوشو فقط بل إنه كان يرنو ببصره نحو كوريا القريبة من كيوشو، وهذا ما حدث بالفعل في عام ١٥٩٢م.

وفي كيوشو سقط العديد من الدايميوات أمام جيش هيديوشي العظيم، وهنا لم يجد شيمادزو يوشى هيسا سوى الاستسلام أمام هيديوشي، فجاءه حالقاً رأسه تماماً (تعبيراً عن الندم والاستسلام) طالباً العفو منه، فما كان من هيديوشي إلا أن أعفى عنه، وجعله يستمر في حكم مقاطعات ساتسوما وأوسومي Oosumi وهيوجا Hiyuga كما كان من قبل حاكماً عليها.

وبذلك خضعت جزيرة كيوشو بأكملها تحت إمرته في عام ١٥٨٧م.

ولم يبق رافعاً راية العصيان على هيديوشي سوى عشيرة هوجو القوية التي تحكم في المنطقة الشرقية وعلى الأخص مقاطعة كاناجارا. وكذلك المحارب داتى ماسامونى Date Masamune (١٥٦٧م - ١٦٣٦م) فى منطقة أوשו Oushu أى محافظات فوكوشيما ومياجى وإيواتى وأومورى الحالية. أما عشيرة هوجو والمتمثلة فى المحاربين هوجو أوجى ماسا Hojo Ujimasa (١٥٣٨م - ١٥٩٠م) وابنه أوجى نائو Ujinao (١٥٦٢م - ١٥٩١م) فقد خرجت على أوامر هيديوشي وقامت بغزو المقاطعات الأخرى خارج معقلهم فى أوداوارا Odawara وذلك فى ١٥٩٠م وقد حاول هيديوشى أن يوسط طوكوجاوا إيباسو حيث إنه

كان حما الابن أوجى ماسا. وحيث إن الأب وابنه كانا يعرفان بتصلب رأيهما وعدم التفاهم بسهولة فقد فشلت وساطة طوكوجاوا فى إثنائهما عن مخالفة هيدىوشى، ثم قام أوجى ناثو بالإعداد للحرب فأمر حدادى كل منطقة ساجامى Sagami بصنع عشرين مدفع والكثير من البنادق. بل إنه جند الرجال من سن ١٥ سنة وحتى سبعين سنة، ودرّبهم على القتال.

ثم قام هيدىوشى بالإعداد لحرب طويلة النفس كما فعل فى حملته ضد كيوشو وأعد جيش عرمرم يتكون من ثلاثمائة ألف جندى، ثم اتجه من البر والبحر نحو معقل عشيرة هوجو فى أوداوارا. وقام جيش هيدىوشى العنيد بحصار قلعة أوداوارا لمدة ثلاثة أشهر حتى استسلموا جوعا بعد أن نفذت مؤنهم. وجاء أوجى ناثو خاضعا تحت يدى هيدىوشى الذى عفا عنه لأنه صهر طوكوجاوا إيباسو، ثم أبعد ليعيش فى جبل كويا Koyasan الموجود فى محافظة واكاياما. وسرعان ما توفى هناك فى ريعان الشباب ولم يبلغ الثلاثين من عمره، أما والده وأخوه الصغير فقد انتحرا على طريقة شق البطن. ثم واصل هيدىوشى إخضاعاته لعدد من الدايميوات والمحاربين الخارجيين على أوامره. كما أخدم ثورات كاسانى وأوساكى والمحارب كونوهيمى سازانى Kunoheme Sazane (١٥٧٠م - ١٥٩١م) والذين قاوموا هيدىوشى عندما كان يعاقب منطقة أوشو. كذلك استطاع إخضاع المحارب داتى ماسامونى Date Masamune (١٥٦٧م - ١٦٣٦م) والذى اعتاد مخالفة أوامر هيدىوشى لفترة طويلة. وبذلك أكمل هيدىوشى عملية توحيد البلاد.

ومن أجل كسر شوكة الدايميوات والمحاربين وكذلك من أجل تجنب حدوث الحروب والمنازعات بين بعضهم البعض قام هيدىوشى

بحركة تنقلات واسعة بينهم فى مختلف المقاطعات. وأشهر هؤلاء طوكوجاوا إيباسو الذى نقل نفوذه من منطقة طوكاى (محافظات شيزو أوكا - إيتشى جنوب جيفو- ميئى) إلى منطقة الكانتو أى مدينة إيدو وما حولها. ونقل داتى ماسامونى ونفوذه من يونى زاوا Yonezawa إلى منطقة كاساى وأوساكي. واستطاع بذلك الإجراء أن يتحكم فيهم جميعا.

بعد أن أصبح طويوطومى هيديوشى كانباكو أى الحاكم العام للبلاد بتحويل من الإمبراطور وجد أن عليه أن يقيم مقرا عظيما له فى كيوطو يليق بهذا المنصب العظيم فأقام قصرا ضخما على شكل القلعة يسمى شوراكو داى Shurakudai فى عام ١٥٨٧م، وفى العام التالى استقبل فى هذا المقر الجميل الإمبراطور جويوزى Goyoei (توج فى عام ١٥٨٦م - ١٦١١م) بحفاوة بالغة، وفى ذات الوقت دعى عددا كبيرا من الدايميوات والقادة بلغ عددهم ٢٩ قائدا وجعلهم يقسمون يمين الولاء له وللإمبراطور. وطبقا لهذا القسم يكون على هؤلاء جميعا احترام أراضي ومخصصات البلاط الإمبراطورى والنبلاء، وكذلك عليهم طاعة ما يأمر به الكانباكو (الحاكم العام) وهو هيديوشى بالطبع طاعة عمياء، وهذا الإجراء إن دل فإنه يدل على حنكة هيديوشى السياسية وأنه بالفعل كان داهية لا يستهان به، لأنه بهذا الإجراء السياسى أكد إلى جانب انتصاراته الحربية العديدة على قدرته على توحيد اليابان تحت إمرته. على أية حال فإن هذا المقر الفخيم الذى بناه هيديوشى وأقام به بعض الوقت تخلى عنه فيما بعد لابن أخيه هيدى تسوجو Hidetsugu وكذلك تخلى له عن لقب الكانباكو، ولكن بعد أن أنجب هيديوشى ابنه

من صلبه هيدى يورى Hideyori (١٥٩٣م - ١٦١٥م) ساءت العلاقة مع ابن أخيه هيدى تسوجو لدرجة أنه أعدمه فى عام ١٥٩٥م بسبب اتهامه بالتآمر عليه، وفى ذات الوقت تحطم قصر شوراكو داى أيضاً، وفيما بعد اتخذ هيدىوشى من قلعة فوشيمى Fushimi - التى أنشأها بعد دمار مقره القديم - مقراً حكومياً له اختلى فيه بعيداً عن الناس، وكأنه يريد اعتزال الحياة العادية، وعلى الرغم من أن نظام حكم هيدىوشى عرف بالديكتاتورية إلا أنه فى آخر عصره قام بعدد من الإجراءات التى تتعلق بالسياسة الداخلية، وتوضح مدى حنكته من أجل تطبيق الديمقراطية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ اليابان وهو إنشاء لجنتين تقومان بإدارة شئون البلاد وتنفيذ السياسة التى يريد تطبيقها وأطلق على إحداها لجنة المسئولين الخمسة (Gobugyō) والأخرى لجنة الحكماء الخمسة (Gotairō) ووضح من تسمية اللجنتين أن كلاً منهما كانت تضم خمسة أعضاء من كبار رجال الدولة وحكائها.

وكما ذكرنا آنفاً أن هيدىوشى قام بحركة تنقلات بين العديد من الاديميات والقادة ليعدهم عن مناطق نفوذهم. وكان من أشهر هؤلاء طوكوجاوا إيباسو الذى قام بنقله من منطقة نفوذه الأولى فى منطقة طوكاى (محافظات شيزوأوكا - أيتشى - جنوب جيفو - ميثى) إلى منطقة كانتو Kantō وهى مدينة إيدو وما حولها من مدن وذلك حتى يتجنب الصدام العسكرى معه. ولذلك السبب أقام طوكوجاوا عاصمة حكمه فى إيدو بسبب نقل نفوذه إليها.

وظلت هكذا لمدة ٢٦٥ عاماً حتى تغير اسمها إلى طوكيو مع بداية عصر مييجى فى عام ١٨٦٨م أى العاصمة الشرقية تميزا لها عن العاصمة

الغربية كيوطو، ولكن فى حالة وجود إيدو عاصمة لحكم الباكفو أى الحكومة العسكرية ظل الإمبراطور مستقرا فى كيوطو لأنها كانت العاصمة الرسمية للبلاد. ومع بداية عصر مييجى انتقل الإمبراطور وحاشيته وقصره إلى طوكيو التى يرجع أهميتها فى الحقيقة إلى طوكوجاوا إيباسو، ولتصبح العاصمة الرسمية للبلاد بدلا من كيوطو التى استمرت كذلك لمدة تزيد عن ألف عام.

٢ - مسح الأراضى الزراعية ونزع الأسلحة :

مسح الأراضى الزراعية ونزع الأسلحة هما الضلعان الرئيسيان للذان أقام عليهما طويوطومى هيديوشى نظامه السياسى الجديد. الأول يسمى أيضاً بمسح الوزير الأكبر للأراضى Taikōkenchi وهو ذلك المسح الذى مارسه هيديوشى بكثير من العنف والإجبار على ملاك الأراضى والفلاحين منذ عام ١٥٨٢م إلى عام ١٥٩٨م. أى أنه بدأ هذا المسح وما زال سيده نوبوناغا على قيد الحياة. ولكنه بعد أن أخضع المقاطعات الشرقية (Kantō) ومقاطعات المنطقة الشمالية الشرقية من اليابان وهى تضم ستة مقاطعات، أصدر هيديوشى أمره بعمل مسح شامل لأراضى هذه المقاطعات الست. وقد عين هيديوشى على رأس لجنة مسح الأراضى مساعده أسانو ناجاماسا Asano Nagamasa (١٥٤٧م - ١٦١١م)، وسلمه خطابا رسميا مختوما يختم الشوجون يتضمن الأوامر والتوجيهات الآتية :

عليك أن تبلغ ملاك الأراضى والفلاحين أن يقتنعوا بالموضوع الذى أمرت به (موضوع مسح الأراضى الزراعية). وإذا كان هناك أشخاص

لا يوافقون عليه ، فيجب عليك أن تحاصرهم فى قلاعهم إذا كانوا من أصحاب القلاع وأن تقتلهم عن بكرة أبيهم ، وإذا كانوا من الفلاحين فعليك أن تتخلص منهم جميعاً حتى لو قضيت على قرية أو قريتين قضاءً مبرماً ، وعليك تنفيذ هذا الأمر بحزم فيما يزيد عن ٦٠ مقاطعة فى كافة أنحاء البلاد وذلك فى أبعد المقاطعات مثل دوا Dewa (وهى تكون الجزء الأكبر من محافظتى ياماجاتا وأكىتا حالياً) وأوشو (وهى محافظات فوكوشيما - مياجى - إيواتى - أومورى). ولا بد عليك ومساعدك أن تأخذوا هذا الأمر مأخذ الجد ، حتى لو قضيتم على الفلاحين ، وحتى إذا كانت نتيجة هذا أن تبور الأراضى والحقول فهذا لا يهم أيضاً ، وعليك تنفيذ هذا الأمر بحذافيره فى قمم الجبال وفى أعماق البحار حيث تستطيع السفن الإبحار وإذا لم تستطيعوا تنفيذ هذا الأمر فسوف يقوم هيدوشى بتنفيذه بنفسه ، وعليكم كذلك أن تقدموا تقريراً بذلك.

هكذا نجد أن هيدوشى أعطى اهتماماً كبيراً لموضوع مسح الأراضى الزراعية وخاصة حقول الأرز التى تمثل الغالبية العظمى من الحقول وغير ذلك من الحقول العادية وذلك لزيادة موارد الدولة من الضرائب العينية التى تفرض على الأراضى الزراعية بشكل عام. وفى الحقيقة أن إجراء مسح الأراضى الزراعية كان يُجرى أيضاً فى عهد سلفه أودا نوبوناغا ولكن طريقة المسح اختلفت فى كلتا الحالتين. وفى زمن نوبوناغا كان المزارعون وملاك الأراضى يملأون استمارة يحددون فيها مساحة حقول الأرز وغيرها من الحقول الأخرى. ويذكرون فى هذه الاستمارة أيضاً كمية إنتاجهم الزراعى وعليه يقدمون هذه الاستمارة إلى مسئولى المسح ، وفى الغالب كان هذا التقرير الذى يقدمه الفلاحون يُقبل كما هو من مسئولى الحكومة.

أما طريقة المسح التى طبقها هيدوشى فكانت دقيقة إلى أبعد مدى . فكان المساحون المرسلون من قبل الشوجون ينزلون بالفعل فى الأراضى الزراعية ويقومون بمسح دقيق . بل إنهم فى كثير من الأحيان يقدرّون إنتاجية الحقول بأكثر مما تنتجه بالفعل ، ولذلك عانى المزارعون كما عانى أصحاب الأراضى . وعندما لم يستطع الفلاحون تسديد ما يأمر به المساحون أو بالأحرى مسئولو المسح الذين كانوا فى الغالب قساة فى معاملاتهم ، فقد كان الفلاحون يهجرون أرضهم تماما ويذهبون بعيدا عنها . كذلك قامت ثورات عديدة قاوم فيها الفلاحون والمزارعون وأصحاب الأراضى جنود نظام هيدوشى ، وكان أشهر هذه الثورات ثورة مقاطعة هيجو Higo (محافظة كوماموتو) وأيضاً هجرة أومي Oumi (محافظة شيجا) حيث قام ما يزيد عن نصف الفلاحين بهجرة أراضيهم وهربوا بعيدا . ورغم كل هذه المعاناة استمر هيدوشى فى ممارسة هذا المسح الدقيق حتى النهاية . وكان دائماً ما يعتقد أن الفلاحين يكذبون على الحكومة ويمكرون بها لأنه أدرى بذلك لكونه فى الأصل فلاحا . وبالفعل لم يهدأ لهيدوشى بال إلا عندما تجمع أمامه دفاتر تحوى مسحا لكل الأراضى الزراعية بالبلاد .

أما الإجراء الثانى الهام الذى قام به هيدوشى فكان نزع الأسلحة من أيدي الفلاحين فيما عرف بالكاتاناجارى Katanagari أى نزع أو حصد السيوف . وبالطبع لم تكن السيوف فقط هى المقصودة بهذا النزع ولكن كان إلى جانبها السهام والرماح والبنادق إن وجدت مع المزارعين ، وقد تزامنت هذه العملية مع مسح الأراضى الشامل الذى تحدثنا عنه توا . ومن أجل تنفيذ هذا الإجراء شكل هيدوشى هيئة

خاصة تتولى مهمة نزع الأسلحة بمختلف أنواعها من الفلاحين وكذلك من رهبان المعابد المسلحين.

وقد اتخذ هيدىوشى من بناء معبد هوكونجى الكبير فى كيوطو حجة له من أجل نزع الأسلحة. حيث إن بناء هذا المعبد يحتاج إلى الكثير من المسامير والشدات المعدنية، وذهب كذلك لمغزى دينى حتى يؤثر به على الفلاحين وغيرهم من أجل إتمام هذا الإجراء حيث حاول إقناعهم بأنهم بمساهمتهم فى بناء هذا المعبد بأسلحتهم فسوف يكون ذلك فى صالح أعمالهم التى تدخلهم الجنة فى العالم الآخر. وبالطبع كان هذا السبب الدينى مجرد حجة فقط لا غير من أجل نزع جميع الأسلحة التى يمتلكها المزارعون. أما السبب الحقيقى فهو محاولة هيدىوشى تجنب حدوث الثورات والهوجات التى صاحبت عملية مسح الأراضى والتى كان يقوم بها الفلاحون وأصحاب الأراضى، وقد احتارت حكومة الباكفو فى كيفية القضاء على هذه الثورات ولذلك لجأت لهذا الإجراء، وإلى جانب ذلك أراد هيدىوشى من وراء هذا الإجراء أن يتفرغ المزارعون لزراعة أراضيههم حتى يضاعفوا الإنتاج فتتضاعف بالتالى الضرائب العينية على حقولهم (nengu).

ومن أجل إحكام قبضة هيدىوشى على البلاد قام بإصدار قوانين وأوامر فرعية مثل فرمان تخصيص قلعة واحدة لكل منطقة أو مقاطعة (Ikkoku - Ichijo) وبناء عليه تم هدم الكثير من القلاع. فمثلاً أصبح ما تمتلكه منطقة أوو (Ouu) (منطقة شمال شرق اليابان) ٣٦ قلعة فقط بعدما كانت تمتلك ٤٨ قلعة قبل إصدار هذا فرمان.

كذلك أصدر هيدىوشى فرماناً آخر فى عام ١٥٩١م يمنع تحول الجنود

التابعين للمحاربين الكبار إلى مدنيين أو مزارعين أو تحول المزارعين إلى تجار أو صناع. ولذلك يعتبر هذا الإجراء بمثابة النموذج المصغر للنظام الطبقي الذى عرف فيما بعد فى عصر إيدو بالشينوكوشو (Shinōkōshō) الذى يميز بين الطبقات الأربع المكونة للمجتمع اليابانى وهى المحاربون ثم المزارعون ثم الصناع ويأتى فى ذيل القائمة التجار، وهذا ما سوف يأتى الحديث عنه بالتفصيل عند الحديث عن عصر إيدو.

٢- هيدىوشى والمسيحية :

عندما قُتل أودا نوبوناغا فى معبد هونوجى فى عام ١٥٨٢م لم يشعر المبشرون اليسوعيون بالقلق كثيرًا، لأنهم علموا أن خليفة نوبوناغا سوف يكون تابعه الأمين طويوطومى هيدىوشى وتوقعوا أنه لن يحدث تغيير يذكر نحو المسيحية والتبشير بها عما كان أيام عهد نوبوناغا الذى كان يحسن إليها. وبالفعل صدق حدس المبشرين، فقد كان سلوك هيدىوشى نحو المسيحية ودودا ومؤيدا تماما كما كان سيده نوبوناغا يفعل. وكان من أكثر الدايميوات قربًا من هيدىوشى الدايميو المسيحي العميق الإيمان تاكاياما أوكون (Takayama Ukon ١٥٥٢ - ١٦١٥م) والذى سوف ينقلب عليه هيدىوشى كما سنرى فيما بعد، ومن أشهر مواقف هيدىوشى الإيجابية نحو المسيحية أنه عندما أتم مدينته القلعية فى أوساكا فإنه أقطع المسيحيين جزءًا منها قاموا على الفور ببناء كنيسة فيه. بل إن هيدىوشى خرج خصيصًا من قلعته وأشرف على عملية قياس الأرض التى ستبنى عليها الكنيسة، وقام تاكاياما أوكون بإحضار مواد البناء اللازمة للكنيسة بنفسه من ستسو.

وفى ربيع ١٥٨٦م زار وفد من المبشرين هيدوشى فى قلعة بأوساكا وقام بشرح معالم القلعة للمبشرين بنفسه. وقد صرح هيدوشى لهذا الوفد أنه بصدد إعداد ألفى سفينة لغزو كوريا والصين، وأنه يرجو من المبشرين أن يتوسطوا لدى البرتغاليين من أجل حصوله على سفينتين مسلحتين تسليحا جيدا، وأنه إذا استطاع إخضاع الصين فإنه سوف يبنى كنائس بكل أنحائها وسوف يأمر الصينيين بالدخول فى الديانة المسيحية، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ووعد المبشرين أنه سوف يعمل على جعل نصف اليابانيين أو أكثر يؤمنون بالمسيحية، مما أسعد المبشرين أيما سعادة.

ولكن بعد مرور عام واحد فقط من هذا التصريح حرم هيدوشى التبشير فجأة، بل وأمر بطرد المبشرين خارج البلاد، وقد صدر هذا الأمر بالتحريم فى عام ١٥٨٧م فى طريق عودة هيدوشى بعد إخضاع كيوشو، وقد صدر فى ثلاث مواد وهى :

أولا: أن اليابان بلد مقدسة ولذلك فلا يجب نشر المفاهيم والتعاليم الشيطانية.

ثانياً: أن اجتهاد الدايميووات من أجل جعل اليابانيين يؤمنون بالمسيحية وإلى جانب ذلك يقومون بتحطيم المعابد البوذية والشتنتوية شىء سفيه لم نسمع به من قبل فى العصور السابقة.

ثالثاً: على المبشرين أن يعودوا إلى أوطانهم فى خلال عشرين يوماً من صدور أمر التحريم وغير ذلك فقد كان هيدوشى قد أمر الدايميو المسيحي تاكاياما أوكون بترك المسيحية ولكنه رفض وهنا استبعده هيدوشى من

منصب الداييميو ثم طرده إلى الفلبين طبقاً لأمر تحريم نشر المسيحية .
وتوفى هذا المسيحى المخلص فى مانىلا عام ١٦١٥م بعيداً عن وطنه .

ولكن ما الذى حمل هيدىوشى على الانقلاب فجأة على المبشرين
والمسيحية بعد أن كان متوددا لهم مؤيداً للمسيحية ؟

فى الحقيقة إن هيدىوشى كما كان سيده نوبوناجا يبغى أرباح
التجارة وكذلك يريد الضغط على البوذية ورهبانها . ولما استطاع التمكن
من الرهبان البوذيين لم يعد هناك سبب مقنع له حتى يدافع عن
المسيحية ، بل إنه من الأفضل لعملية توحيد البلاد هو كما جاء فى أمر
تحريم التبشير أنه لابد من منع تحطيم المعابد البوذية والشتوية وكذلك
الحفاظ على قيم وعادات المجتمع اليابانى من الانهيار وهو كما ذكرنا
لكى تتم عملية توحيد البلاد على أكمل وجه .

وقد استبق هيدىوشى أمر التحريم وطرده المبشرين بأمرين آخرين
يتعلقان بالتضييق على المسيحية ومبشريها والمؤمنين بها من الداييميو
وهو :

أولاً : أن الاعتقاد بالمسيحية يعتبر حرية شخصية ولكن فى حالة
المحاربين ذوى الرتب العالية والدايميووات لابد وأن يحصلوا على تصريح
خاص من هيدىوشى نفسه . وليس معنى أن يعتنق الداييميو المسيحية أن
ينقل هذا الإيمان إلى الفلاحين الذين يعيشون فى نطاق نفوذه .

ثانياً : يمنع على المؤمنين بالمسيحية إحداث ثورات وهوجات كما
كان الحال فى ثورات البوذيين ، وكذلك يمنع أكل لحوم البقر والخيول
كما يفعل الأوروبيون . وفى ذات الوقت يمنع على الأوروبيين تصدير
اليابانيين للخارج كعبيد .

ومن الواضح أن كل هذا التضيق على المسيحية جاء فى أعقاب إخضاع هيدىوشى لجزيرة كيوشو وإطلاعه على الأوضاع الحقيقية بالجزيرة وبدء تغلغل الديانة المسيحية بها فـشعر بالقلق بسبب ذلك وقام بإصدار أوامر المنع والتحریم المتعددة السالف ذكرها.

ومن بين الداييميووات الذين احتضنوا الكثير من المؤمنين بالمسيحية اشتهر الداييميو المسيحى أومورا سوميتادا Omura Sumitada (١٥٣٣م - ١٥٨٧م) بإيمانه العميق بالمسيحية حتى إنه خصص هذه المدينة كلها لتصبح تابعة للكنيسة. وهو أيضاً الذى أرسل بعثة الشباب المسيحى إلى روما، وإلى جانب ذلك قام بتعطيم العديد من المعابد البوذية والشنتوية مما أغضب هيدىوشى غضباً عارماً لدرجة أن البعض كان يخشى أن تؤدى هذه السيطرة المسيحية إلى تحويل اليابان كلها إلى مستعمرة مسيحية فى أسوأ الأحوال.

وقد كان هيدىوشى يعبر بعض الاعتبار نحو الداييميووات المسيحيين إلا أنه نظراً للأسباب السابق ذكرها ووفاة كل من الداييميو المسيحى سوميتادا وأوتومو سورين Otomo Sorin فى عام واحد وهو ١٥٨٧م لم يعد هيدىوشى يعطى اعتباراً للمسيحية، وقام بإصدار أمر طرد المبشرين المسيحيين. وانتزع ناجاساكي من الكنيسة ووضعها تحت حكمه المباشر. ولكن على الرغم من هذا العداء للمسيحية ومبشرها فلم يقدم هيدىوشى على إيقاف التجارة مع الغرب المسيحى، فقد كان هيدىوشى يحتاج إلى التجارة مع البرتغاليين. ولذلك فقد أعفى السفن البرتغالية من أى إجراءات عقابية بل وكان يرحب بها.

وهكذا نجد أن هيدىوشى بدأ بداية مرحبة جداً بالمسيحية على نسق

سلفه نوبوناغا ولكنه انقلب عليها وعادها، وسوف تستمر هذه العداوة لها ولعنتقيها فى عصر إيدو بل وسينكل بهم أشد التنكيل كما سيأتى فيما بعد عند الحديث عن عصر إيدو وعزلته.

ولكن مهما كان من عدااء هيدىوشى للمسيحية فلم يكن هذا يجعله أن يتغاضى عن تشجيع التجارة التى يحتاج إليها كما أسلفنا. ولذلك أصدر عدة فرمانات من أجل تأمين طرق الملاحة التجارية مع الغرب وخاصة البرتغاليين، وفى عام ١٥٨٨م أصدر فرمان تحريم القرصنة البحرية. كذلك أسبغ حمايته على تجار كيوطو وساكاى وناجاساكى وهاكاتا من أجل عبورهم الآمن إلى دول شرق آسيا، وهنا وقع هيدىوشى فى المحذور وتناقضت قوانينه من أجل حماية التجار مع فرماناته للتضييق على المسيحية، وهكذا لم يستطيع منع الديانة المسيحية من الانتشار فى كل أنحاء اليابان.

وفى عام ١٥٩٦م وقعت حادثة السفينة الإسبانية سان فيليب، فقد تم الاستيلاء على هذه السفينة بناء على تصريح طائش لأحد ملاحىها وكذلك لوشاية من برتغالى مفاده أن إسبانيا من أجل توسيع مستعمراتها تستخدم المبشرين من أجل ذلك. وعندما علم هيدىوشى بذلك قام بالقبض على ٢٦ من المبشرين والمؤمنين بالمسيحية وكانوا معظمهم من جمعية فرانسيسكو المسيحية الإسبانية. وأرسلهم إلى ناجاساكى حيث تم إعدامهم جميعا، وهؤلاء ما يطلق عليهم بالشهداء الستة والعشرين وعلى إثر هذه الحادثة تصاعد الصراع بين هيدىوشى والجمعيات الدينية الإسبانية التى تعمل بالتبشير. وقد أكدت هذه الواقعة على التهديد الذى تمثله المسيحية بالنسبة للطبقة الحاكمة فى اليابان، ومنذ هذه الحادثة لم يتوقف إيداء المسيحيين فى اليابان إلا بعد فترة طويلة.

٤ - سياسة هيديوخى الخارجية وغزو كوريا

لا شك أن طموح طويوطومى هيديوخى كان بلا حدود، فهذا الرجل الذى جاء من أصل ريفى وأسرة فقيرة استطاع أن يتسلم الراية من سيده نوبوناغا وأن يكمل مشوار توحيد البلاد على أكمل وجه مستخدماً كل الوسائل سواء كانت اللينة أو الشديدة فهو لا يتورع أن يعاقب أعداءه أشد العقاب إذا لم يمتثلوا لأوامره أو أن يعفو عنهم ويبقيهم فى مناصبهم إذا لانوا له وامتثلوا، فكان بالفعل محاربا عنيدا وسياسيا محنكا فى ذات الوقت، فبعد أن أخضع هيديوخى جزيرة كيوشو وحكامها لنفوذه رمى بنظره نحو الفلبين التى كانت آنذاك البلد التى ينطلق منها الزحف الإشباني نحو آسيا منذ احتلالها عام ١٥٧١م.

كانت إسبانيا تعير اهتماماً كبيراً من أجل الحصول على تجارة التوابل مع دول جنوب شرق آسيا، ومن أجل ذلك خاضت معارك تجارية عنيفة مع البرتغال. وظلت تتحين الفرص من أجل التقدم نحو الصين واليابان، ولكن لأجل إعطاء كل قوتها لإدارة القارة الأمريكية فقد تركت المنافسة على دول شرق آسيا لتعطى الصدارة فى ذلك للبرتغال، ولكن وبرغم ذلك ظلت الفلبين وحدها تحت سيطرتها.

وفى عام ١٥٩١م أرسل هيديوخى خطابا إلى الحاكم العام الإشباني على الفلبين قائلاً فيه: «أنا الملك الذى وحد اليابان، والآن أنا فى طريقى لإرسال قوات من أجل إخضاع كوريا وريوكيو Ryukyu (أو كيناوا) والصين، وسوف أخضع الفلبين بسرعة وأجعلهم جميعا يدفعون الجزية لليابان».

بالطبع لم يكن لدى هيديوخى آنذاك ما يجعله يستطيع غزو الفلبين ، ولكن إسبانيا استطاعت توظيف هذا التصريح توظيفاً ماهراً وعبر مباحثات مع اليابان نجحت فى إرسال عدة جمعيات تبشيرية إليها ، مثل جماعة فرانسيسكو ودومينيكو وغيرهما . وبالطبع اصطدمت هذه الجمعيات التبشيرية الإسبانية بمثيلتها البرتغالية التى كانت تحتكر من قبل النشاط التبشيرى فى اليابان.

وقد ذهب هيديوخى بأحلامه فى الغزو حتى تصور أنه سوف يغزو الصين ومن ثم تصبح الهند لقمة سائغة فى فمه ، ويجعلها أيضاً تدفع الجزية لليابان . أما تايوان فقد أرسل لها هيديوخى بالفعل وفداً فى عام ١٥٩٣م لإقناعها بدفع الجزية لليابان ، ولكن لأنه لم يكن لدى تايوان آنذاك حكومة ولم تكن دولة بمعنى الكلمة فلم يستطع هذا الوفد إنجاز شئ ما .

ولكن هيديوخى مضى فى تحقيق حلمه فى غزو كوريا بعد أن استطاع إخضاع كيوشو بنجاح كبير جعل كل دايميواتها يمتثلون لأمره . وقد قام هيديوخى بمحاولتين لاحتلال كوريا الأولى فى عام ١٥٩٢م وتسمى بغزوة Bunroku Noeki والثانية فى عام ١٥٩٧م وتسمى بغزوة Keichōnoeki وذلك نسبة إلى الفترة الزمنية التى تمت فيها هاتين الغزوتين .

وقد بدأ هيديوخى التفكير فى غزو كوريا منذ عام ١٥٨٧م عندما طلب من كوريا عبر حاكم جزيرة تسوشىما (جزيرة تقع بين اليابان وكوريا) ويدعى صوشى Soshi من أجل مساعدة كوريا اليابان لغزو الصين وكذلك لكى تدفع كوريا الجزية لليابان . وقد استقبل هيديوخى وفداً كورياً فى قصره جوراكوداى الذى تحدثنا عنه من قبل شارحاً كيف أنه يريد أن

يخلد اسمه عن طريق غزو الصين، ولكن كوريا رفضت بالطبع مثل هذه المطالب غير المسئولة، وربما كان ما فعله هيديوشى من احتقار لإرادة كوريا هو بداية العلاقات السيئة التى استمرت لفترة طويلة عانت خلالها كوريا من الصلف اليابانى، وذلك على الرغم من أنها أقرب جارات اليابان جغرافيا لها. وفى الحقيقة لا تزال رواسب هذه العلاقة السيئة بين البلدين باقية فى نفوس الكوريين حتى يومنا هذا.

على أية حال فقد استعد هيديوشى لغزو كوريا منذ تلك اللحظة، ومن أجل ذلك أقام معسكرا كبيرا لجيشه فى ناجويا، وفى عام ١٥٩٢م (العام الأول من بونروكو) أرسل جيشا ضخما مكونا من مائة وخمسين ألف جندى إلى كوريا، ولكن فى إنفاذ هيديوشى لحملته يبرز سؤال هام وهو هل كانت أحلام هيديوشى فى غزو كوريا هى فقط الباعث على هذا التفكير لديه؟

الحقيقة أن هناك أسبابا أخرى أدت بهيديوشى إلى حملته هذه. فقد أبقت الحروب الداخلية فى اليابان على قوات عسكرية ضخمة للدايميوات، ففكر نظام هيديوشى فى توجيه هذه القوات نحو الخارج فلم يجد أقرب ولا أسهل من كوريا حتى يوجه لها هذه القوات، وإلى جانب ذلك فقد كان يحيط بهيديوشى تجار أغنياء حاولوا أن يتربحوا من الحروب الخارجية ما لم يستطيعوا تربحه عن طريق الحروب الداخلية، وراودتهم أيضًا أحلام المكاسب الكثيرة التى عادة ما تأتى من تطور التجارة عقب الحروب. وهكذا اجتمعت أحلام العديد من الدايميوات والمحاربين والتجار الأغنياء مع أحلام هيديوشى من أجل توسعة نفوذهم خارج البلاد فكان قرار غزو كوريا.

نزل جيش هيديوشى الأول فى ميناء بوسان فى أبريل ١٥٩٢م ثم

استطاع الجيش الثانى إسقاط مدينة كانجو (العاصمة سول الآن) بسرعة فائقة نظرا للسلاح الجديد الذى تسليح به وهو البندقية وكان ذلك فى بداية مايو، ثم ما لبث أن احتل مدينة هيجو (بيونج يانج الحالية)، ويجب أن نعرف أن كوريا آنذاك لم تكن مقسمة إلى كوريتين كما هو الحال اليوم. على أية حال كان الهجوم اليابانى الافتتاحى كاسحا ومباغتا للكوريين وذلك لعدم الاستعداد الجيد منهم وكذلك لقوة السلاح اليابانى المتمثل فى البنادق كما أسلفنا القول.

ولكن مع تقدم المعارك نحو الشمال واتساع نطاقها واجهت القوات اليابانية مشاكل عديدة من نقص فى أعداد الجنود والإمدادات الحربية وكذلك نقص حاد فى الأغذية.

والى جانب ذلك تفاقمت الأوضاع الحربية للجيش اليابانى بعدما هُزم جيشها البحرى أمام القوات البحرية الكورية وذلك بسبب استخدام أول سفينة مدرعة عرفها التاريخ، وفقدت بذلك اليابان تفوقها البحرى، كذلك عانت القوات اليابانية من ضربات القذائين الكوريين، ثم اضطرت إلى التراجع نحو الجنوب أمام الجيش الذى أرسلته الصين لمعاونة كوريا، واضطر كذلك الجيش الذى يقوده القائد اليابانى كونيشى يوكى ناجا Konishi Yokinaga (١٥٥٨م - ١٦٠٠م) إلى التراجع أمام تقدم القوات الصينية المعاونة.

ولم يجد هيدويشى وقائد جيشه كونيشى يوكى ناجا أمامهما إلا اللجوء إلى محادثات السلام مع الصين، وعليه حضر وفد صينى إلى اليابان فى منتصف شهر مايو ١٥٩٣م. وتراجع كذلك الجيش اليابانى حتى وصل إلى نقطة البدء فى ميناء بوسان الكورى، وهكذا توقفت

الحرب ضد كوريا بعد حوالى عام من بدءها، وظلت مباحثات السلام تتعثر لمدة ثلاث سنوات.

وبرغم الظروف العصيبة التى واجهها جيش هيدويوشى فى كوريا، إلا أنه استسلم لأوهام النصر العظيم الذى ظن أنه حققه فى كوريا، فظل يفرض شروطه المتشددة إلى حد كبير أثناء مباحثاته مع الوفد الصينى الذى قدم إلى اليابان، ومن هذه الشروط أن تستسلم الصين لليابان، وأن يتزوج الإمبراطور اليابانى من الإمبراطورة الصينية، وكذلك تنازل الصين عن مستعمراتها فى جنوب كوريا، وإلى جانب ذلك استعادة التجارة البينية بين البلدين وغير ذلك من الطلبات والشروط قدمها هيدويوشى للوفد الصينى، ولكن رئيس الوفد الصينى واجه هذه الطلبات بقوله: «إن الصين سوف تعينك ملكا على اليابان» بمعنى أن اليابان تتبع الصين وتحت سيطرتها، وكذلك على اليابان أن تدفع الجزية للصين مما جعل هيدويوشى ينفجر غضبا من هذا الأسلوب المتعالى فى التعامل مع اليابان، كانت تلك الواقعة فى عام ١٥٩٦م. ولم يلبث هيدويوشى أن أرسل جيشا جارا مكونا من أكثر من ١٤٠ ألف جندى إلى كوريا مرة أخرى فى يناير عام ١٥٩٧م الموافق العام الثانى من كيتشو ولذلك سميت هذه الغزوة الثانية على كوريا بغزوة كيتشو. ولكن هذه المرة كانت الظروف مختلفة، ولم يحقق الجيش اليابانى الانتصارات الخاطفة التى حققها المرة السابقة بل عانى من قسوة برودة شتاء كوريا والجوع بسبب نقص المواد الغذائية، وبينما يعانى الجيش اليابانى أشد المعاناة توفى هيدويوشى مريضا فى أغسطس ١٥٩٨م، ثم قرر كل من طوكوجاوا إيباسو ومائيدا طوشى إيه اللذين آلت إليهما مقاليد الأمور فى البلاد سحب جيش الحملة على

كوريا، ولكن بعد أن فشلت هذه الحملة فشلاً ذريعاً في تحقيق أى شىء إيجابى، فعلى الصعيد الخارجى أوجدت هذه الحملة أثراً سيئاً للغاية فى نفوس الكوريين نحو اليابان بسبب العدد الكبير من الضحايا التى خلفتها الحملة وإلى جانب ذلك الأساليب الوحشية التى مورست ضد الكوريين، والتى تعد نقطة سوداء فى تاريخ هيدىوشى حيث أمر بأن تقطع أنوف مئات الكوريين من الجنود والمواطنين، وتحمل إلى اليابان لاتخاذها دليلاً على انتصاره، وأما عن اليابانيين أنفسهم فقد فقدوا الكثير من جنودهم فى هذه الحملة الفاشلة، علاوة على إنفاق أموال طائلة عليها، هذا إلى جانب فقدان اليابان للعلاقة الجيدة التى كانت تجمعها بكوريا حتى حدوث حملتى هيدىوشى وترك جرح عميق فى نفوس الكوريين نحو اليابان، وأخيراً كان لهذه الحملة الفاشلة الأثر الكبير على إضعاف نظام هيدىوشى السياسى الذى لم يدم طويلاً بعدها.

٥- نهاية هيدىوشى

فى مارس ١٩٤٨م أقام هيدىوشى احتفالاً كبيراً بالربيع وذلك باستعراض الزهور الشهيرة فى اليابان باسم هانامى Hanami كان هيدىوشى قد جاوز الثانية والستين من عمره، وبدا منشغلاً على ابنه الصغير من صلبه هيدى يورى الذى كان من المفروض أن يرث العرش الذى صنعه أبوه عبر سنوات طويلة من الكفاح والاجتهاد، ومن الطبيعى أن يكون مصير نظام هيدىوشى السياسى غامضاً بسبب هذا الوضع خاصة أنه عانى من مرض الموت بعد هذا الاحتفال مباشرة.

وكانت هناك معاناة أخرى يعانى منها هيدىوشى، وهو ذلك الخلاف الحاد الذى نشأ بين معسكرين من الدايميووات يتبعان هيدىوشى

الأول ويمثله كاتو كيوماسا Kato Kyomasa (١٥٦٢ - ١٦١١م) وهو العسكر الحربى أو الصقور، والثانى ويمثله كونيشى يوكيناجا Konishi Yukinaga (؟؟؟؟ - ١٦٠٠م) وإيشيدا ميتسو تارى Ishida Mitsutari (١٥٦٠ - ١٦٠٠م) وهو العسكر المدنى أو الحمام الذى كان يعارض الحرب خارج البلاد ويدعو للاهتمام بأمور البلاد الداخلية، وهذان العسكران كانا يختلفان أيضاً فى طريقة إدارة الحرب فى كوريا، كذلك كان العسكر الأول يدعو دائماً إلى توسيع مستعمرات اليابان فى الخارج أما الثانى فكان يدعو إلى إقرار السلام مع الدول المجاورة.

وفى شهر مايو من ذات العام وأثناء وجود هيدىوشى على فراش الموت، قام بتشكيل هيئة استشارية من خمسة من كبار الداييميوات أشهرهم طوكوجاوا إيباسو، وكانت مهمة هذه الهيئة الأساسية هى البحث فى أمر مستقبل ابن هيدىوشى ونظامه بعد وفاته، وقد طلب هيدىوشى من هذه الهيئة الاستشارية معاونة ابنه هيدى يورى وتقديم النصح له، بل وجعلهم يكتبون عهداً بذلك. ولم يلبث هيدىوشى أن مات بعد ذلك الاجتماع بثلاثة أشهر فقط فى أغسطس ١٥٩٨م عن عمر يناهز ثلاثة وستين عاماً.

أما عن شخصية هيدىوشى التاريخية فهى تعد من أحب الشخصيات لدى اليابانيين ويأتى فى كثير من الأحيان الشخصية التالية للأمير شوطوكو تايشى Shōtoku Taishi (٥٧٤م - ٦٢٢م) والذى ظلت صورته لمدة طويلة مطبوعة على إحدى العملات الورقية اليابانية وذلك لشدة حب اليابانيين له، والجدير بالذكر هنا أن شخصية نوبوناغا لا تعد

محبوبة ولا مكروهة بالنسبة لليابانيين، أما شخصية طوكوجاوا إبياسو فهي شخصية مكروهة لليابانيين نظراً لانتهازيته المشهورة، ولكن لابد لنا أن نتساءل لماذا أصبح هيدىوشى محبوباً لدى اليابانيين لهذه الدرجة التى تجعله يأتى فى المرتبة الثانية بعد الأمير شوطوكو؟

والإجابة ترجع إلى طبيعة اليابانيين التى تقدر وبشدة كفاح وجهاد الإنسان، فقد نشأ هيدىوشى فى أسرة ريفية فقيرة ولكنه كافح كفاحاً مريراً حتى وصل لدرجة مساعد الإمبراطور (كانباكو) واستطاع بعد مجهود مضنى أن يكمل مشوار توحيد البلاد الذى بدأه سلفه نوبوناغا، ولا بد أن نتذكر هنا مدى القيود التى وضعها النظام الطبقي آنذاك لكى تجعل من صعود الفرد من طبقته الريفية الفقيرة لطبقة أعلى، شيئاً بعيد المنال فما بالنأ أن يصعد هذا الشخص ليكون بمثابة الرئيس لهذا البلد. هذا ومن فرط حب اليابانيين واحترامهم لقصة كفاح هيدىوشى فقد صدرت خلال عصر إيدو العديد من الأعمال الأدبية التى تحكى قصة هذا الكفاح تحت عنوان «قصة ملك Taikōki» وكذلك تناولتها الخطب الحماسية والمسرحيات، وكانت أشهر هذه الحكايات تلك التى كتبها أوزى هوآن Oze Hoan حوالى عام ١٦٢٥م فى ٢٢ جزء.

واردادت شعبية هيدىوشى بعد الولوج فى العصر الحديث حيث كانت الغلبة لفاهيم المساواة والمنافسة الحرة التى تجعل الجميع متساوين وتجعل من حق الجميع أن يحلموا بأن يصعدوا إلى أعلى الدرجات فى المجتمع عبر الجهد واستخدام القدرات الذهنية التى يتمتع بها الفرد عن الآخرين، ووجدوا القدوة فى ذلك عند هيدىوشى، كذلك برزت صورة هيدىوشى كمثال على الطموح أمام العسكريين اليابانيين الذين

تطلعوا نحو آسيا، قبل الحرب العالمية الثانية حيث كان هو مبدع هذه الفكرة فى الخروج من البوتقة اليابانية إلى الأراضى الشاسعة فى القارة الآسيوية.

وتبقى نقطة أخيرة من حق هيديوشى أن نذكرها وهى أنه خرج على عرف تاريخى أسسه شوجونات عصر أشيكاجا الذين حاولوا التقرب من الصين بتملقها ليحافظوا على سلطتهم المزعزعة وكذلك من أجل تحقيق الربح الوفير عن طريق التجارة مع إمبراطورية الصين العظمى فلم يتورعوا عن أن يعطوا أباطرة الصين من أسرة مينج لقب «ملك اليابان» فما كان من هيديوشى إلا أن حاول بالفعل غزو الصين وإهانتها حتى يمحو هذا العار التاريخى عن اليابان التى كانت تفاخر دائما بأنها إمبراطورية الآلهة. وهو لذلك أيضا غضب غضبا شديدا عندما صرح له رئيس الوفد الصينى الذى أتى إلى اليابان للتصالح معها أن الصين ستجعله ملكا على اليابان، وربما كان ذلك أيضا سببا من أسباب حب اليابانيين لهيديوشى وتقديرهم له.

٦ - ثقافة عصر موموياما :

عرف عصر هيديوشى الذى استمر لحوالى خمسة عشرة عاما فقط من عام ١٥٨٣م - ١٥٩٨م بعصر موموياما أى عصر الخوخ، وجاءت هذه التسمية من أشجار الخوخ التى زرعت فى نفس المكان الذى كانت تقع فيه القلعة التى شيدها هيديوشى فى منطقة فوشيمى وذلك بعد اندثار القلعة. وقد تميزت ثقافة هذا العهد بالرخاء والمظاهر المادية التى لم تعرف من قبل وابتعدت عن الروح البوذية التى سادت إبان عصر

الحروب الداخلية ، فاهتمت بالفنون والثقافة الحياتية التى تتيح أكبر قدر من المتعة على حساب الدين والعلم ، وكان لذلك عدة أسباب أهمها :
أولاً : استيعاب اليابانيين للثقافة الأوروبية التى جاءت عبر البرتغاليين.

ثانياً : انتهاء حالة الحرب بين الديميوات التى استمرت حوالى مائة عام بما يعرف بعصر الحروب جلب حالة من الأمان التى أدت بالتالى إلى رخاء فى التجارة والصناعة والزراعة ، ونشأت بالتالى طبقة من التجار الأغنياء غناء فاحشاً.

ويكفى أن نلقى نظرة على حالة القلعة التى أنشأها هيديوشى فى أوساكا لتجعلنا ننبره من الرخاء الذى كان سائدا آنذاك ، فنجد مثلاً القاعة الكبرى التى كان يستقبل فيها هيديوشى الدايميوات ، وحجرة طقوس الشاى اليابانية المصنوعة من الذهب والفضة ، وفى الخلف كانت حجرة نوم هيديوشى والحجرات التى كانت تخزن بها أدوات الشاى اليابانى كلها كانت مغطاة بصفائح من الذهب ومزينة بلوحات زيتية غاية فى الجمال اشتهر بها هذا العصر.

وإلى جانب ذلك اتسمت حياة المواطن العادى فى عصر موموياما بالدعة والرخاء ، وظهر بجلاء تأثير قدوم الأوربيين لليابان ما جعل اليابانيين ينظرون بإيجابية وعيون متفتحة على العالم خارج بلادهم. كذلك كان تحول الثقافة من ثقافة النبلاء وثقافة البوذية التى صنعها النبلاء ورهبان البوذية إلى ثقافة مدنية شعبية تعكس حياة سكان المدن وتهتم بالحياة الدنيا. كل هذا كان من أهم ملامح ثقافة موموياما أو بالأحرى عهد طويطومى هيديوشى.

وكانت اللوحات الفنية التي تزين قاعات القلاع والقصور آنذاك تعكس روحاً من البهجة والقوة وعلى الأخص لوحات الفنان كانو إيتوكو Kano Eitoku (١٥٤٣م - ١٥٩٠م) وحفيده الذى تأثر به فيما بعد تانيو Tanyu (١٦٠٢م - ١٦٧٤م) واشتهرت لوحاته الجميلة فى بداية عصر إيدو، وكانت لوحاته التى تصور الأسود تمشى فى خيلاء أو اللوحات التى تضم الطيور والحيوانات تعكس قدرًا كبيرًا من الرخاء وحب الطبيعة والانفتاح عليها وذلك عكس ما كان سائدًا فيما مضى من كآبة نظرًا لظروف الحروب التى عمت البلاد.

كذلك تميز الفن فى عصر موموياما بانتشار اللوحات الجدارية، وهى تلك التى كانت تُرسم على جدار القلاع والقصور، وعلى فواصل الحجرات الخشبية وكذلك على البرافانات، وكان هذا النوع من اللوحات معروفًا فى اليابان منذ عهد هيان (٧٩٤م - ١١٨٥م) إلا أن لوحات عصر موماياما الجدارية تميزت بفخامة نقوشها وتألؤها.

ومن أشهر وأجمل اللوحات التى رسمها فنان عصرى أزوتشى موموياما كانو إيتوكو لوحة «داخل مدينة كيوطو وخارجها» وهى لوحة تصور مظاهر الحياة فى مدينة كيوطو من عربات عيد جيئون المزركشة تسير مصطفة فى شوارع كيوطو، وكذلك بيوت التجار وسكان المدينة، وهذه اللوحة قام برسمها العديد من الفنانين ولكن كان أشهرهم هذا الرسام السالف ذكره وفنان آخر يدعى أوى سوجى إيبى موطو Uesugi Iemoto، ويمكن الاستدلال أيضاً على حيوية مدينة كيوطو ورخائها أثناء وبعد عصر موموياما من لوحة أخرى رسمت على ساتر خشبى كبير وضع أمام بوابة معبد هوكوجى الذى بناه هيديوشى وذلك فى الذكرى السابعة لوفاته.

وبلغ من الرخاء وازدهار الفن فى عصرى أزوتشى موموياما - أى عصرى نوبوناغا وهيدوشى - أن عامة الناس أيضاً كانوا يطلبون من فنانى هذا العصر أن يرسموا لهم رسومات على المراوح المصنوعة من الورق المقوى وكذلك الكتب المصورة. إذن فليس فقط على القوم وأغنياؤهم من كانوا يطلبون ذلك الطلب الذى فيه الكثير من الرفاهية.

إن عهدى أزوتشى موموياما يعتبران عهدين للانفتاح بين عصرين من العزلة، أما عصر العزلة الأول فكان بدون اختيار اليابانيين ، بسبب بُعد اليابان عن الغرب وعدم وصول الأوربيين لها. أما عصر العزلة الثانى فهو الذى تلى عهد موموياما وبدأ مبكراً فى عصر إيدو الطويل نسبياً.

وقد كان تأثير ثقافة الغرب فى فترة حكم نوبوناغا وهيدوشى لا يستهان به. فقد دخلت اليابان العديد من الأشياء الغربية مثل الكرة الأرضية وخريطة العالم التى جعلت اليابانيين يتعرفون على العالم الذى حولهم ، وإلى جانب ذلك دخلت ماكينات الطباعة وتم طبع الكتب المسيحية عن طريقها والقصص الغربية التى شاعت آنذاك مثل قصة إيسوب ، ولكن للأسف فقد تم منع هذه الطريقة من الطباعة الحديثة آنذاك وعاد اليابانيون لاستخدام الطباعة على ألواح الخشب مرة أخرى فى عهد إيدو. كذلك دخلت أثناء فترة موموياما العديد من الكلمات المسيحية المقدسة وظل اليابانيون يستعملونها حتى اليوم مثل كلمة Pan أى خبز وكلمة كاستيلا Castilla وهى نوع من الحلوى جلبه البرتغاليون لأول مرة فى ناجاساكي.

وتعد قلاع أوساكا وأزوتشى وفوشيمى من مظاهر حضارة عهدى أزوتشى موموياما حيث اختلغت هذه القلاع الثلاث من حيث مكان إقامتها وشكلها الداخلى عن القلاع السابق بناؤها فى العصور الأخرى، فقد بنيت هذه القلاع على أرض مستوية وليس على الجبال كما كان فى السابق. كذلك أنشئت بطريقة فخمة بضخامة توضح مدى قوة وعظمة ونفوذ منشئها الذين استطاعوا توحيد البلاد، أما داخل هذه القلاع فقد تم إنشاء أماكن لإقامة المحاربين عبارة عن حجرات كبيرة ذات فواصل ومزدانة برسومات تقليدية. وكذلك بنيت قصور لإقامة الكانيكو وعائلته وضيوفه مثل قصر جوراكوداى الذى أنشأه هيدىوشى. وتميزت هذه القصور بلوحاتها الجدارية التى رسمت على الحوائط وفواصل الحجرات والبرافانات، وكانت أرضية هذه الأشياء مذهبة والألوان المضافة عليها كانت زرقاء وخضراء.

ومن فرط جمال جدران وحجرات قلعة فوشيمى فقد تم نقل أجزاء منها إلى القاعة الكبرى لمعبد آخر خاص بالديانة الشنتوية وكذلك تم نقل أجزاء من قصر جوراكوداى الفخم الذى أنشأه هيدىوشى إلى معبد دايئوكوجى ومعبد نيشيهون جانجى Nishihonganji.

ومن أهم وأرقى المظاهر الثقافية التى اشتهر بها عصر موموياما طقوس الشاى اليابانى التقليدية وهذه الطقوس تتسم بالوقار والهدوء وتعطى النفس طمأنينة وسكون خاصة إذا تمت فى حجرة صغيرة وفى أجواء ريفية. ويعطى صوت غليان الماء فى الإبريق فى هذا الجو الهادئ السكنية والهدوء لمن يشاهد هذه الطقوس، وهذا ما يطلق عليه فى التراث الثقافى اليابانى بسكينة الشاى (Wabicha).

وكان تاجر من مدينة ساكاي اسمه سننوريكيو Sennorikyu (١٥٢٢م - ١٥٩١م) هو الذى أكمل هذا النوع الخاص من الطقوس التقليدية، فقد كانت هذه الطقوس معروفة منذ عصر موروماتشى وكانت متأثرة بديانة الزن القديمة، ولكن مع استمرار فوضى وصخب الحروب التى سادت اليابان قبل عصر موموياما فقد لجأ مواطنو المدن إلى هذا النوع من الطقوس طلبا للراحة والاطمئنان.

وقد كان سننوريكيو معلما لطقوس الشاي للزعيم طويوطومى هيدىوشى. ولسبب غير واضح حتى الآن أمره هيدىوشى أن يقتل نفسه على طريقة الهاراكيرى. وقد كان ريكىو هذا على علاقة وثيقة بسياسات هيدىوشى، وربما لذلك وقع فى صراعات سياسية أدت به إلى هذا المصير البائس. ويقال أيضًا أنه ارتكب واقعة فساد فيما يتعلق بأدوات الشاي حيث كان متخصصا فى تحديد قيمة هذه الأدوات التى كانت باهظة الثمن إذا كانت أصلية وليست مقلدة، ويقال أيضًا أنه رفض أن يرسل ابنته أوجين Ogin إلى هيدىوشى فكان أن غضب عليه وأمره بأن يقتل نفسه. على أية حال انتشرت حفلات الشاي التقليدية بين كبار تجار كيوطو وساكاى وهاكاتا ثم انتقلت فيما بعد لتنتشر بين الدايميوات والمحاربين. ولكن اختلفت حفلات الشاي التى كان يقيمها الدايميوات عن تلك التى تتبع طريقة ريكىو البسيطة فى أنها كانت متأللة براقه وذات رفاهية عالية تحاول فى ذلك أن تحاكي ثقافة موموياما المزدهرة والغنية. وهكذا أعطى اختلاف حفلات الشاي من حيث البساطة من ناحية والرفاهية من ناحية أخرى تنوعا ثقافيا تميز به عهد موموياما. أما مسرح الكابوكى فقد نشأت فكرته الأساسية فى هذا العهد،

وبالطبع يرجع ذلك أيضا كما فى الفنون الأخرى إلى انتشار حالة السلام بعد فترة طويلة من الحروب والفوضى ، ففي منطقة كامونو شيجوكاوا Kamono Shujokaway بكيوطو حيث كانت معقل للتسلية والدعة ، ذاع صيت امرأة تدعى أوكونى Okuni كانت تقوم برقصة الكابوكى ، وهذا يرجع إلى وثائق من ذلك العهد وكذلك يمكن التعرف إليه من الصور التى ترجع لذلك العهد ولكن سنة ميلادها ووفاتها غير معروفة وكلمة كابوكى يرجع أصلها إلى الفعل Kabuku أى الأداء الهزلى أو ارتداء الشخص لأزياء غريبة وأداء حركات عجيبية أيضا تدهش الناظرين ، فمثلاً هذه السيدة السابق ذكرها كانت ترتدى ملابس الرجال وتمسك بالسيف وترقص ملوحة بالسيف ، وكانت تحوز على إعجاب المشاهدين أيما إعجاب وذلك لأنهم كانوا يتمتعون جدا برؤية امرأة ترتدى ملابس الرجال وتؤدى حركاتهم ومن فرط شعبية أوكونى فقد قامت بأداء مسرحياتها فى مدينة إيدو ومدن أخرى عديدة ، ويقال إن هذه السيدة كانت تقوم بكل هذا النشاط من أجل جمع تكاليف إصلاح معبد إيزمو الكبير حيث كانت تخدم فيه كراهبة ، ويفضل هذه السيدة أو بالأحرى الفتاة الصغيرة شاعت رقصة الكابوكى بواسطة البنات ، ولكن بعد ذلك حرمت حكومة الباكفو فى إيدو رقصة الكابوكى البناتى لأنها رأت أنها تدمر التقاليد ، وأصبحت هذه الرقصة تؤدى بواسطة الشباب الصغير السن ، ثم سرعان ما حُرِم هذا النوع من الكابوكى أيضا ، وأخيرا أصبح يؤدى بواسطة الرجال فقط.
